



العاصمة مجلة

المجلد الرابع، ٢٠١٢ م

ISSN : 840-2277-9914



قسم العربية، كلية الجامعة
ثرونتبرم - ٦٩٥٠٣٤، كيرالا، الهند

الأفكار الثورية في الفلسفة التربوية للإمام الغزالي

د/ لياقت علي

أستاذ مساعد، رئيس قسم العربية، الكلية الحكومية، موكيري، كيرلا، الهند

لاستطيع أن نفهم قيمة الفلسفة التربوية التي جاء بها الإمام الغزالي إلا بالوعي الصحيح عن الجو الذي عاش فيه. وقد عاش الغزالي في أواخر القرن الخامس للهجرة (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) وتأثرت شخصيته بجميع الحركات والأفكار والمدارس السائدة في ذلك العصر كما تأثر بالجو الديني والسياسي الذي عاصره - إما إيجابياً وإما سلبياً. أقرّ الغزالي بأهمية كل فرقة من هذه الفرق بينما أنكر تطرف كل منها وإنكاره فضل الآخرين على أساس العصبية والأناية. وقد حاول الغزالي لحقن الروحانية في دم الفقهاء وأهمية الشريعة في دم المتصوفين كما قال الشيخ يوسف القرضاوي: "انه حاول أن يفقه (التصوف) و (يصوف) الفقه ، إن صحّ التعبير" (١)



فقد أشار الغزالي إلى جوانب القصور في كل فرقة من هذه الفرق. وكونه فقيهاً لا يمنعه من انتقاد الفقهاء بقوله "وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه... و أما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال، بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها؛ و ليس ذلك من فن الفقه.... وأما الصلاة فالفقيه تفتي بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط، وإن كان غافلاً في جميع صلاته من أولها إلى آخرها... وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة" (٢). ورغم كونه متصوفاً قد انتقد التطرف في التصوف فأنكر الدعوى الطويلة العريضة في العشق بالله تعالى والفناء فيه، وقول "أنا الحق!" وترك الأعمال الشرعية الظاهرة، ودعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة، والمشاهدة بالله وما إلى ذلك من الدعوى المتشابهة بأقوال حسن بن منصور الحلاج، حتى قال: "من نطق بشئ منه، فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة!" (٣)

مشاركة العقل والنقل في كسب العلم:-

حتى في أيامنا هذه نرى بين الناس من ينكرون الحقائق العلمية على حساب الدين وآخرين ينكرون صحة الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة بادعائهم بأنها تخالف العقل. وكانت محاولة الغزالي في اتجاهه التربوي للتوفيق بين العقل والنقل في كسب العلم. رأى الغزالي لكل منهما دوره ونطاقه وحدوده. يرى أن الوحي طور وراء العقل، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن إدراك الألوان ، والبصر عن إدراك الأصوات.(٤) فقال أيضاً:- "فقد تناطح قاضي العقل، وهو الحاكم الذي لا يعزل ولا يبدل، وشاهد الشرع، وهو الشاهد المزكي المعدل... (٥) ويقول في موقف آخر: " فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعاً بين الأصلين. فإن العلوم العقلية كالأغذية،

١ الإمام غزالي بين مادحيه وناقديه، للشيخ يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤، ص - ١٥

٢ كتاب العلم من إحياء علوم الدين للشيخ أبي حامد الغزالي

٣ نفس المرجع

٤ القرضاوي، المرجع السابق، ص - ٤٧

٥ المصطفى للغزالي ج - ١، ص-٣)

والعلوم الشرعية كالأدوية والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاتته الدواء. فكذلك أمراض القلوب، لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفاد من الشريعة." (١) ولم ير الإمام أبو حامد أي حرج في الاستفادة من الحقائق العلمية حتى في الأمور التعبدية مثلما نستفيد من علم الفلك في توقيت الصلوات وشروق الشمس والقمر وغروبهما وتعيين الكسوف والخسوف. وقد لقب الغزالي الرجل الذي ينكر هذه الحقائق على حساب الدين بـ "الصدّيق الجاهل" (٢).

موقفه الجريئ ضد التقليد والعصبية المذهبية

لموقفه نحو التقليد أهمية بالغة في البحث عن فلسفته في التربية واتجاهه في التعليم لأن التقليد والاجتهاد مقابلان كلما ازدادت أهمية واحد منهما في أمة من الأمم نقصت أهمية الأخرى. قد عاش الغزالي في القرن الخامس الهجري التي كانت العصبية باسم المذاهب الدينية والطرق الصوفية فيه على ذروته. واشتهرت بين الشعوب أسماء عظيمة وكان لهم أتباع ومقلدون، لا يقبلون من أي عالم أو جاهل الخروج عليها ولا نقدها. وكان الزمان في انتظار شخصية بارزة تقدر للقيام ضد هذا التيار الجارف وتحرر الناس من أغلالها المكثفة - شخصية لا تخاف في دين الله لومة لائم. وكان الغزالي من وفق الله له للقيام بهذه المسؤولية التاريخية. كان الغزالي يعد نفسه شافعياً - لا لتقليده الأعمى للمذهب الشافعي ولا لتعصبه به - بل باتباعه له بالإحسان. وهذا الاتباع لا يمنعه من ترك رأي من آراء إمامه كلما رأى دليلاً يخالفه. وفي ذلك يقول: "فجانب الالتفات إلى المذاهب، واطلب الحق بطريق النظر، لتكون صاحب مذهب، ولا تكن صورة أعمى، تقلد قائدا يرشدك إلى الطريق، وحوالك ألف مثل قائدك ينادون عليك بأنه أهلكك وأضلك عن سواء السبيل! و ستعلم في عاقبة أمرك ظلم قائدك، فلا خلاص إلا في الاستقلال.... ولو لم يكن في مجارى هذه الكلمات إلا ما يشككك في اعتقادك الموروث. لتنتدب للطلب، فناهيك به نفعا! (٣)، فيرى أن الشكوك في الاعتقادات الموروثة هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى الضلال. ويقول أيضاً: "علم يا أخي أنك متى كنت ذاهبا إلى تعرف الحق بالرجال، من غير أن تتكل على بصيرتك، فقد ضل سعيك، فإن العلم من الرجال، إنما هو كالشمس، أو كالسراج، يعطى الضوء، ثم انظر ببصرك، فإن كنت أعمى فما يغنى عنك السراج والشمس، فمن عول على التقليد، فقد هلك هلكا مطلقا" (٤). وعارض الغزالي العصبية المتطرفة السائدة بين التابعين للمذاهب المختلفة حيث أدى كثيراً منهم إلى تكفير بعضهم بعضاً. وحدد للتكفير حدوداً واسعة ومعايير واضحة.

تقسيم العلم:

إن فضل الريادة في تقسيم العلوم وفي اتخاذ بعض المعايير الموضوعية في هذا التقسيم لا يعود إلا عليه ولو خالفه بعض من خلفه من العلماء والمفكرين في المعايير التي اتخذها أساساً لهذا التقسيم. يقسم الغزالي العلم إلى قسمين: علم المكاشفة وعلم المعاملة. وعلم المكاشفة على حد تعبيره: "هو علم الصديقين والمقربين... فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتركيبته من صفاته المذمومة؛ وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير منضحة؛ فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه و صفاته الباقيات

- ١ كتاب العلم من إحياء علوم الدين للغزالي
- ٢ المنقذ من الضلال للإمام الغزالي
- ٣ القرصاوي، المرجع السابق، ص- ٤٠
- ٤ معراج السالكين للغزالي

التامات، وبأفعاله وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة... المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور اتساحا يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه. ... وهذا هو العلم الخفي الذي أراده صلى الله عليه وسلم بقوله: " إن من العلم كهينة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الإغترار بالله تعالى، فلا تحقروا عالما آتاه الله تعالى علما منه فإن الله عزّ وجلّ لم يحقره إذ آتاه إياه"(١). فالعجيب هو أن الدليل الوحيد الذي استدل به الغزالي للبيان عن علم المكاشفة هو حديث ضعيف موضوع.

والنوع الثاني هو علم المعاملة. يرى الغزالي أن هذا النوع هو العلم الواجب حصوله على كل مسلم ومسلمة. والمعاملات التي كلف بها الله تعالى العبد العاقل البالغ ثلاثة: اعتقاد وعمل وترك. ويجب على كل مسلم تعلم مقدار ما يجب عليه من العلم عن هذه الأمور الثلاثة في حياته حسب مقتضى حاله وذلك مطابقاً لقانون التدرج الذي سنبينه أسفله. وعندما بين الغزالي وجوب مقدار محدود من العلم على كل مسلم ومسلمة يبين عن بعض العلوم الأخرى التي يعدها فرض كفاية. فهذا التقسيم فكرة ثورية أخرى من الفلسفة التربوية الإسلامية التي ابتكرها الإمام الغزالي. العلم في هذا النوع " هو كل علم لا يستغني عنه في قوام أمور الدنيا"... (٢) ومن أنواع العلوم التي يعدها فرض كفاية الطب والحساب وأصول الصناعة مثل الفلاحة والحياكة والسياسة والحجامة والخياطة.

اعتباراً لمصادر العلوم يقسم العلم من جديد إلى شرعية وغير شرعية. والعلوم الشرعية هي "ما استفيد من الأنبياء (ص) بواسطة الوحي. ولا يرشد إليها العقل ولا التجربة فلا سبيل لعامة الناس إليها إلا بواسطة الأنبياء والمرسلين. وإنما عليهم تصديقها واتباعها وامتثالها. وأما غير الشرعية هي ما استفيد بالتجربة أو العقل أو السماع. ويقسم الغزالي العلوم الشرعية أيضاً إلى أربع طبقات فهي:

١. الأصول:- هي العلوم في القرآن والسنة والإجماع وأثار الصحابة.
٢. الفروع :- يبينها بأنها "ما يفهم من الأصول" فهذه هي العلوم التي استفيدت بالقياس في مصطلحات أصول الفقه.
٣. مقدمات:- هي "ما يجري مجرى الآلات" كعلم اللغة والنحو.
٤. متممات:- هي ما يمنح الكمال في العلم عن الأصول مثل علم التجويد الذي يتعلق بنطق ألفاظ القرآن أو علم التفسير الذي يبين معانيها.

ويقسم العلوم غير الشرعية حسب نفعه أو ضره للشخص أو المجتمع ويقول: "اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام: قسم هو مذموم قليله وكثيره، وقسم هو محمود قليله وكثيره، وكما كان أكثر كان أحسن وأفضل، وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل عليه، والاستقصاء فيه،.... وأما العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص، فهي العلوم التي أوردناها في فروض الكفايات، فإن في كل علم منها اقتصاراً وهو الأقل، واقتصاداً وهو الوسط، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لا مرد له إلى آخر العمر... ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلباً للاستقصاء، فإن العلم كثير، العمر قصير. وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها." (٣)

١ نفس المرجع
٢ كتاب العلم من إحياء علوم الدين للغزالي
٣ كتاب العلم من إحياء علوم الدين للغزالي

الذكاءات المتعددة Multiple Intelligences

البحث عن الذكاءات المتعددة قد أنال صاحبه الدكتور (Howard Gardner) جائزة نوبل سنة ولكننا نرى البذور الأساسية للتفكير نحو هذه الجهة في أفكار الإمام الغزالي التربوية حيث يقول: "اعلم ان العقل ينقسم إلى غريزي وإلى مكتسب. فالغريزي هو القوة المستعدة لقبول العلم، ووجوده في الطفل، كوجود النخل في النواة. والمكتسب المستفاد هو الذي يحصل من العلوم. يقرر الإمام الغزالي أهمية الوراثة أو العناصر الجينية مع الجو الذي يتربى فيه (Heredity and Environment) في تطور العقل الصحيح.

قانون العرض والطلب في فضل أنواع العلوم وقانون التدرج في وجوب كل منها

والعلماء في كل نوع من أنواع العلوم غالباً ما يدعون أن العلم الذي هو بصدده أفضل من أنواع العلوم الأخرى. فيُقدم الإمام الغزالي قانوناً خاصاً لتعيين فضل كل نوع من أنواع العلوم. وهذا القانون يتشابه بقانون العرض والطلب في علم التجارة. ويرى أن مقدار طلب المجتمع إلى نوع من العلوم هو العنصر الذي يعين مقدار فضله فيه. كلما يزداد طلبه إليه واستفادته به تزداد أهميته وفضله فيه. وعلى هذا، يصبح فضل كل نوع من أنواع العلوم نسبياً. ويزداد فضل علم الطب - على سبيل المثال - في مجتمع ليس فيه عدد كاف من الأطباء بينما ينقص فضله حينما يزداد عددهم فيه. وليس هناك فضل ثابت لأي نوع من أنواع العلوم. فعلى هذا ينتقد توهم كثير من الناس أن "للعلوم الدينية" - على حد قولهم - فضل ثابت. فيقول: "فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاثرون على علم الفقه لا سيما الخلافات والجدليات. والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع. فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة، وإهمال مالا قائم به... (١). فهذا اتجاه ثوري قدمه الإمام الغزالي أمام المجتمع الإسلامي المحافظ المقلد في ذلك الوقت. حتى في عصرنا هذا يظن الكثير من المسلمين أن الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة في فضائل العلم منحصرة في كسب "العلوم الدينية". ومن الصعب إقناعهم أن للجد والجهد في سبيل العلوم مثل الطب والهندسة والصناعة والتقنية لمثوبة من عند الله. وتصحيح مثل هذه الأوهام الخاطئة عبئ على علماء الأمة.

ومن الأفكار الثورية التي جاء بها أيضاً قانون التدرج في وجوب العلوم. يرى الإمام الغزالي أن العلم الذي يجب على كل فرد بوصفه فرض عين هو العلم الذي يجعله قادراً لتسليم عقائده وأداء واجباته على مقتضى كل حال. حيث يقول: "فإذا بلغ الرجل العاقل فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما ... فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت... وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض... فإن لم يملك إلا الأبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الأبل، وكذلك في سائر الأصناف ... فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك، فإن لم يخطر له ذلك و مات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم... فقد مات على الإسلام إجماعاً... فإذا انتبهت لهذا التدرج علمت أن المذهب الحق هو هذا" (٢). ولهذا القانون قابلية بالغة للتنفيذ في تطوير المناهج الدراسية في مدارسنا الإسلامية. أنظر على سبيل المثال إلى المناهج الدراسية الموجودة في المدارس الدينية الصباحية في كيرالا. الغرض من التربية في هذه المدارس هو تمكين الأجيال الناشئة لحياة دينية واعية. ولكننا نرى فيها كثيراً من التفاصيل التي لاتناسب أغراضهم

١ كتاب العلم من إحياء علوم الدين للغزالي
٢ نفس المرجع

ولاتانم بأعمارهم مثل التفاصيل عن الغزوات والحروب من تاريخ الإسلام المستطيلة والأحكام الفقهية الدقيقة التي لا يحتاج إليها سكان بلادنا. ومن نقوص مدارسنا أيضاً في هذا الصدد، أن ليس هناك أنظمة منظمة لتربية المراهقين الذين هم في أمس الحاجة إلى التفاصيل الدقيقة عن الحياة الإسلامية الحقيقية.

وظائف المعلم والمتعلم

وفي الباب الرابع من كتاب العلم المعنون بـ "في آداب المتعلم والمعلم" وفي رسالته "أيها الولد" يبين الغزالي عن مسؤولية المعلم والمتعلم في عمليات التعلم والتعليم ويفصل في هذا الصدد عشر وظائف مهمة للمتعلم ليكون طالباً مثالياً ناجحاً. وبعد ذلك يبين فضائل المعلم المثالي فيدعو "المعلم المرشد" ملفتاً إلى ضرورة أن يكون المعلم مرشداً للطلاب فيشير إلى عظمة عمل التعليم قائلًا: "ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه ووظائفه". فيعد له ثمانية وظائف مهمة. فالبيان عن كل واحد من هذه الوظائف يكشف لنا مدى عمق فلسفته التربوية الإسلامية. فمنها - على سبيل المثال: "الوظيفة الخامسة - أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه كعلم اللغة إذ عاداته تقبيح علم الفقه ... ومعلم الكلام ينقر عن الفقه و يقول : ذلك فروع و هو كلام في حيز النسوان، فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمان... والوظيفة السادسة - أن يقتصر المتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله، فينفره أو يخبط عليه عقله، اقتداء في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال: "نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نُنزل الناس منازلهم و نكلّمهم على قدر عقولهم". وقال صل الله عليه وسلم: (وما أحد يحدثُ قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم). (١)

وكل هذه الوظائف يكشف أماننا الأبعاد الأخلاقية والنفسانية والعلمية والفلسفية لنجاح عمليات التعلم والتعليم.

ما ينتقد عليه

كان الغزالي شخصية متعددة لها أبعاد متعددة وجوه متنوعة. وقد استطاع الغزالي أن يجذب عدداً متوازناً بين المادحين والناقدين قديماً وحديثاً فانظر إلى كتاب الشيخ يوسف القرضاوي المعنون "الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه" للتفاصيل عنها ولا يهمنا في هذه المناقشة الا تلك التي تتعلق بأفكاره التربوية. ومنها:

١. اعتماده على الأحاديث الضعيفة:- وهذه ظاهرة سائدة في جميع مؤلفاته وكتبه. فمثلاً إن الغزالي ذكر في (كتاب العلم) من (الإحياء) نحو خمسة و خمسين حديثاً، منها ثلاثة عشر في مرتبة الصحيح أو الحسن و الباقي ضعيف جداً، رغم اشتهاره على الألسنة والأقلام.(٢)
٢. رأيه عن الاستقصاء في العلوم:- الاتجاهات العلمية الجديدة في ميثولوجيا البحث يؤكد على أهمية تركيز كل باحث في النقطة البحثية التي هو بصددتها ولكن وجهة نظر الغزالي عن الاستقصاء في علم من العلوم يعارض هذا الاتجاه كما أوردنا آراءه فيها في المناقشة عن أقسام العلم في هذه المقالة. وفي نفس الوقت إنه لا يرى أي بأس في الاستقصاء في العلوم التي سماها "شرعية". ولأصل لهذا التفريق في النصوص الإسلامية. ولم يحدد الله تبارك وتعالى أي تحديد في مقدار أي نوع من أنواع العلوم ولكنه على العكس قد حرص في آيات كثيرة الدراسة والبحث والتعمق في عجائب خلقه (العلوم غير شرعية - على حد قوله).

١ كتاب العلم من إحياء علوم الدين للغزالي.
٢ القرضاوي، المرجع السابق، ص - ١٥١